
الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها

● د. شكران خربوطلي
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة دمشق

عناصر الموضوع

مقدمة
البيئة الطبيعية للمدينة
اقتصاد المدينة
الزراعة
الثروة الحيوانية
الصناعة والحرف
التجارة
الأسواق
الخاتمة

الحياة الاقتصادية لأي مجتمع، هي الدعامة الأساسية في وجوده واستمرار بقائه وارتقائه، وقد فسرت هذه الدعامة على أنها الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية فيه، وترتبط الفعالية الرعوية وتربية المواشي بتلك الفعاليات في بعض الأحيان. ولعلنا نجد ارتباط الاقتصاد بالزمان والمكان، فالإنتاج الاقتصادي رهين البيئة بكل تفاصيلها، لذا فرضت على الأوائل من بني البشر التكيف غير المحدود مع المكان الذي عاشوا فيه، فاتبعوا نمطاً خاصاً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يتواءم من واقعهم، ثم عملوا بدأب ونشاط لاستثمار امكانات التربة. لذا وقبل الحديث عن الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة لابد من التعرف على بيئتها الطبيعية.

تقع المدينة المنورة إلى الشمال من مكة المكرمة، وكانت مدينة صغيرة تعادل نصف مكة، (١) وتبعد عن الجار وهو ميناؤها على البحر الأحمر يوم وليلة، (٢) ويبدو أنه مثل دوراً هاماً بالنسبة لها، خاصة وأن جزيرة صغيرة يقال لها قراف، وقعت على مقربة منه، وكانت ملتقى التجار القادمين من سواحل أفريقية والمحيط الهندي، (٣) وكانت التجارة مزدهرة في ميناء الجار، بحيث لم يكن بالحجاز بعد مكة أكثر مالأً وتجارة منه. (٤) وأرض المدينة بركانية بين حرتين، وقد اشتهرت بالخصب والنماء، يحدها جبل أحد من الشمال (٥) وجبل عير من الجنوب الغربي، وهو عبارة عن جبلين أحمرين متقاربين ببطن العقيق، أحدهما عير الوارد والآخر عير الصادر، (٦) وإلى الشرق منها بقيق الفرقد، وإلى الجنوب قرية قباء وكانت على بعد ميلين منها مماليي القبلة، وهي شبيهة بالقرية، وكان الفرع من المدينة على أربعة أيام في جنوبها. (٧)

يوجد في المدينة وديان كثيرة، (٨) أخصبها وادي العقيق وهو « يشق من قبل الطائف، ثم يمر بالمدينة، ثم يلقي في أضم البحر، (٩) وهو عقيقان، العقيق الأكبر والعقيق الأصغر، وبه آبار لاتزال آثار بعضها بادية ظاهرة، ولكنها مطمورة كبتّر رومه، وبئر عروة بن الزبير، (١٠) وقد عرف وادي العقيق بعيونه ومزارع نخيله. (١١)

ومن أودية المدينة، وادي بطحان، ووادي رانون، الذي يبدأ من جبل عير قبلي المدينة، ويمر بقباء ثم يختلط بوادي بطحان، ووادي مذيئيب، في الجنوب الشرقي، وهو شعبة من بطحان، وعليه كانت منازل بني النضير، ويقع إلى الشمال الشرقي وادي قناة، ووادي مهزور، وهو موضع ماء على أربعين ميلاً من المدينة، ويأتي من الحرة الشرقية المعروفة

باسم حرة واقم، (١٢) على أنه في الحقيقة حرّات المدينة ثلاث هن: حرة واقم في الشرق، وهي أشهرها وأخصبها، وحرّة الوبرة في الغرب. وحرّة قباء في الجنوب، ثم أنه بالقرب من المدينة ثلاث حرّات أخريات هن: شوران، وتقع على يسار الواقف بطن العقيق يريد مكة، (١٣) وحرّة ليلي، وكانت لبني مره بن عوف بن ذبيان يطوؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة، وحرّة النار بالقرب من حرّة ليلي. (١٤)

ومناخ المدينة حار صيفاً، بارد شتاءً، يؤيد ذلك قوله (ص) «من صبر على لاوائها وشدتها كنت له شهيداً—أو شفيعاً—يوم القيامة»، (١٥) وتسقط أمطارها في أوقات قصيرة، وقد تحدث سيولاً في كثير من الأحيان، لأنها تهطل بعنف، لذا فإن ظاهرة انتشار الاوبئة والامراض بالمدينة كانت من الظواهر المألوفة، فالرسول (ص) حين قدم إليها «وهي أوبأ أرض الله» أصاب أصحابه منها بلاء وسقم فدعا (ص): (اللهم جيب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدّنا وصحّحها لنا وأنقل حمّاها إلى الجحفة) (١٦).

وعلى العموم، إذا قيس مناخ المدينة بمناخ مكة فيمكن القول أنه معتدل، فضلاً عن أن ترتبها خصبة، وقد أتاح—مع توفر المياه—جعل الحالة الاقتصادية في المدينة متنوعة الجوانب. وكان سكانها في أواخر القرن السادس للميلاد عبارة عن تجمع قبلي كبير يعرف ببني قيلة ضم قبيلتين هما الأوس والخزرج (١٧) إلى جانب عشائر من يهود بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع.

وطالما توفرت في المدينة مقومات: التربة والمياه من الآبار والأودية، (١٨) فمن الطبيعي أن يعمل السكان بالزراعة وفق نظام خاص، فقد ذكر أنهم كانوا يقسمون المياه بينهم بأن يجبس الماء صاحب الأرض العالية حتى تسقي نخيله فتصل إلى جذوعه بارتفاع الكعبين، ثم يرسلها إلى من أرضه أسفل فيسقي، (١٩) وقد قضى رسول الله (ص) في سيل مهزور ومذنيب «أن يجبس الماء حتى يبلغ الكعبين، ثم يرسل الأعلى على الأسفل» (٢٠) وفي الأوقات التي تشج فيها الوديان أو تجف، وفي الأماكن التي كان الماء لا يصل إليها، كان الناس يستخدمون مياه الآبار في ارواء مزرعاتهم، وقد أشار ياقوت إلى ذلك بقوله: «نخيل المدينة وزرعها تسقي من الآبار عليها العبيد» (٢١).

واستخرجت المياه من الآبار بالدلاء، وكان الزراع يستخدمون الحيوان في متع الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسري البساتين والحقول، وقد كان لاحتاجة بن الجلاح تسع وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها. (٢٢)

كان جل أهل المدينة يعملون بالزراعة كل على قدر حاله، لكن أوسع الأراضي وأخصبها، وأكثرها غلة كانت بأيدي اليهود، ووجهاء الأوس والخزرج حيث «ان الخبر اليهودي مخريق كان غنياً كثير الأموال من النخيل»، (٢٣) وقيل «كان مخريق أحد بني النضير حبراً غنياً له سبع حوائط وبساتين». (٢٤)

لقد عمل اليهود بالزراعة، وكانت زراعتهم تأتي عليهم بمال طيب، جعل بعضهم من الأثرياء، وقد استفيد من «شراح الحرة» وفي سقي المزارع، وكانت تستمد ماءها من الحرة.

وأفقد التركيب السكاني غير المتجانس يثرب المبادرة، وأعاق تبوأها دوراً أكثر أهمية في الحجاز، فانطوت بصورة شبه دائمة على صراعات داخلية ضارية قضت على جزء من طاقاتها، فكثيراً ما قامت الحروب بين الأوس والخزرج بتشجيع من اليهود من أجل الرئاسة والزعامة، والعصبية القبلية، والثأر، والاعتداء على الممتلكات الخاصة، فأثر ذلك على الزراعة وأفسح المجال واسعاً أمام اليهود لاستغلال امكانات المدينة لصالحهم. وهذا يفسر لنا مقدار الجهد الذي تحمله عرب المدينة حين نزل عليهم المهاجرون من أهل مكة، وأقاموا معهم في ضيافتهم، وكيف وجد الرسول (ص) حلاً لتلك الأزمة بإيجاد نظام المؤاخاة، والدليل على ذلك أنه لم تتحسن الأوضاع إلا بعد اجلاء بعض العشائر اليهودية عن المدينة واستقرار أمر المهاجرين، فأموال بني النضير مثلاً كانت خالصة لرسول الله (ص) فكان يزرع تحت النخيل في أرضهم، فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، والباقي كان يجعله في الكراع والسلاح، وقد قسمها (ص) على المهاجرين دون الأنصار إلا أنه أعطى سهل بن حنيف، وأبادجانة سَمَاك بن خرشة الساعدي، وغيرهما. (٢٥)

لقد قسم رسول الله (ص) أرض بني قريظة بين المسلمين على السهام (٢٦) «وأعلم في ذلك اليوم سهان الخيل وسهان الرجال، وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفارس سهان، ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرس سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستاً وثلاثين فرساً....» (٢٧)

وقد انتعشت الزراعة بالمدينة بعد الهجرة والقضاء على المنازعات الداخلية فيها، حتى أنها استوعبت عدداً كبيراً من المهاجرين إليها والوافدين عليها من قبائل العرب.

وكان النخيل أهم المزروعات وعليها اعتمد أهلها بالدرجة الأولى (٢٨) يأكلون ويتاعون ويبيعون منه ويدفعون الأجور ويسددون الديون (٢٩) ففي صحيح البخاري باب كامل عن البيوع وأغلب الحديث به عن النخل. (٣٠)

وبما أن معظم المزارع كان يملكها يهود المدينة، فقد أثرى الكثيرون من زراعته والمتاجرة به، واعتمد معظم السكان عليه، فكان جل طعامهم منه وبه كانوا يتعاملون لذا أصبح تمر المدينة من أجود الأنواع، فالصيحاني منه لم يوجد مثله في بلد من البلدان. (٣١) ويتمر يثرب ضرب المثل، وقد أشار امرؤ القيس بشعره إلى نخل يثرب بقوله:

علون بأنطاكية فوق عقمة

كجرمة نخل أو كجنة يثرب (٣٢)

وكان عندهم العجوة ونخيل اللون. (٣٣)

واهتم المدنيون بالنخيل لفوائده الجمّة، حيث كانوا يستخدمون جذوعها أعمدة لبيوتهم، وحوامل معترضة لسقوفهم، ويستعملون جريدها في سقوف منازلهم ويرضخون النوى بالمراضخ حتى تتكسر، فيكون علفاً للابل، ويعملون من خوصها المكاتل والققف. (٣٤)

والجدير بالذكر أن الشعير والتمر كانا طعام الناس، وقد عدّ الشعير المصدر الثاني لثروة المدينة الزراعية، فأثناء الحديث عن الخندق ورد: «عملنا مع رسول الله (ص) في الخندق فكانت عندي شوية عير جد سميّة قال: فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله (ص) قال: فأمرت امرأتي فطحنّت لنا شيئاً من شعير، فصنعت منه خبزاً ودُبِحت تلك الشاة». (٣٥)

وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين، زرعوا التين، والسفرجل، والخوخ، (٣٦) والسلق والبصل والثوم (٣٧) وكان من مزرعاتهم الهامة حبّ اللبان، فكان يحمل إلى سائر البلدان. (٣٨)

ومن عاداتهم أنهم كانوا يأخذون ورق السلق فيجعلون فيه حبات من الشعير ويطيخونه فيكون طعاماً لذيذاً. (٣٩)

أضف إلى ذلك أنهم أحاطوا الحدائق بأسوار مرتفعة قدر الامكان لحماية ومنع الانسان والحيوان من دخولها سميت بالأطم. (٤٠)

ولعلهم كانوا يكرّون الأرض لأجل قصير، أو لأجل طويل، فاذا كروا الأرض لأجل طويل غرسوا الشجر على نصيب معلوم من الثمر، لأنه لم يكن هناك معاملة بالدنانير والدراهم، قال رافع بن حديج «كنا أكثر أهل المدينة مزدرعاً، كنا نكري الأرض بالناحية منها مسمى لسيد الأرض قال: فما يصاب ذلك وتسلم الأرض ومما يصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا، وأما الذهب والورق فلم يكن يومئذ (٤١) وكانوا يتعاملون على الشطر مما تغله الارض فلما جاء المهاجرون زارعوا الانصار حتى ماكان في المدينة بيت هجرة الا وزرع على الشطر أو على التين، أو على أوسق من تمر أو بر أو غير ذلك.

ولم يكن: «بالمدينة أهل بيت هجرة إلا ويزارعون على الثلث والرابع...» (٤٢) وقد عامل النبي (ص) أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من تمر أو زرع، وكري بعضهم أرضه بطريقة المؤاجرة أو المغارسة أو المزارعة بالربع أو الثلث أو نصف الناتج، أو أقل من ذلك أو أكثر فنهى الرسول (ص) عن ذلك بقوله: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه، فان أبى فليمسك أرضه» (٤٣)

وذلك لأن المؤاجرة والمغارسة والمزارعة شكل من أشكال الاستغلال بالمدينة ومنطقتها تؤدي إلى منازعات وخصومات بين صاحب الارض والمستأجر أو العامل فيها. أضافة إلى ذلك أنهم باعوا ثمار نخيلهم وأعنابهم بطريقة المزبنة والمحاقلة فنهى رسول الله (ص) عن ذلك (٤٤).

ولهذا نجد اقبال المهاجرين على الزراعة، فحفروا الآبار وجنوا منها ثمراً طيباً وفي هذا دليل أنه كان من بين المهاجرين قوم يحسنون الزراعة فضلاً عن أن جلّهم كانوا يريدون عملاً يعتاشون منه، وبحسب العادة المتبعة حاقلوا أصحاب الأرض، على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم، كانوا يتفوقون عليه، وقد نجح بعضهم في استغلال الأرض وكسبوا منها، غير أن قسماً منهم اختصم مع الملاك بسبب توزيع الحاصل أو الماء، فكان رسول الله (ص) يتدخل بنفسه في حسم الخلافات التي كانت تنشب بين الملاك ومن يعمل عندهم، ولعله بسبب هذه الخلافات تم الغاء ايجار الارض بقوله: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها، فإن لم يفعل فليمسك أرضه» (٤٥)

وبهذا أوجد الرسول (ص) حلاً للمشكلة الاقتصادية التي واجهته بعد الهجرة، والتي نبتت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة، وغادروها دون أمل بالعودة واسترداد ما يملكون، اضافة إلى أنه أوجد نظام المؤاخاة، أفادت هذه المؤاخاة من الناحية الاقتصادية بدليل إن عملية الميراث التي قامت على المؤاخاة توقفت بعد النصر في بدر وما أفاء الله عليهم من غنائم وأموال سدت عوز المحتاجين منهم، فلم يعد له ما يسوغه. (٤٦)

وكانت الثروة الحيوانية ركن آخر من أركان الحياة الاقتصادية حيث امتلك أهل يثرب ثروة من الابل كانوا يرعونها مما تنبت المدينة من أشجار وشجيرات رعوية. (٤٧)
فعندما رأى رسول الله (ص) ابلا في السوق وأعجبه سمنها، قال: «ابن كانت ترعى هذه؟ فقالوا: بحرة شوران فقال: «بارك الله في شوران» (٤٨) وقد ذكر حسان بن ثابت الانصاري الابل في شعره قائلا:

يُشرب قدشيدوا في النخيل

حصوننا ودجن فيها النعم (٤٩)

وقد اتخذت الابل مقياساً للثروة والمال، فكانوا يقدرون بها أثمان السلع، والأشياء ويتعاملون بها في تجارتهم، وفي أسواقهم وبها تم تقدير الديّات والفدية والمهور، فأول قتيل وداه رسول الله بمئة ناقة، (٥٠) فقد كان لرسول الله (ص) لقاح في الغابة. (٥١)

وكان عدد ابل المسلمين يوم بدر سبعين بعيراً (٥٢) وهذا العدد قليل إذا قيس بعدد المسلمين، لذا كانوا يتعاقبون الابل الاثنين والثلاثة والاربعة، (٥٣) وبعد بدر كثر عدد ابل المسلمين من الغنائم ومن النتاج، فمثلاً كانت النعم في غزوة قرارة الكدر خمسمائة بعير (٥٤) وغنم المسلمون في غزوة حنين من الابل «أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغنم لا يدري عددها، قالوا: أربعين ألفاً وأقل وأكثر» (٥٥) ومما يدل دلالة واضحة ازدياد عدد الابل في المدينة بعد آمد من هجرة الرسول إليها امداد عثمان بن عفان جيش تبوك بثلاثمائة بعير. (٥٦)

ووجدت الخيول في المدينة، ولكنّها كانت قليلة العدد (٥٧) وهي ان وجدت كانت بحوزة أهل اليسر والغنى، وبالمقارنة مع عددها بعد الهجرة نجد أنها زادت شيئاً فشيئاً، وذلك تبعاً لحاجة المسلمين اليها في حروبهم نظراً لسهولة الخيل وخفتها ومرونتها في القتال وفي الكرّ والفرّ، فهي سلاح لنجاح الغزو، وإلحاق الأذى بالعدو، فكثير جلب الخيل من البادية للبيع وقد كانت لها سوق خاصة بالمدينة «كانت بنو سليم يجلبون اليها الخيل...» (٥٨) وفي القرآن الكريم ذكرت الخيل في آيات متعددة على أنها مصدر من مصادر الثروة والزينة وبهجة الحياة الدنيا يهرب المسلمون بها أعداءهم. (٥٩)

وعندما كثر عدد الخيول في المدينة جعل لها الرسول (ص) موضعاً خاصاً للرعي فحمى النقيع أمهات الخيل المسلمين وركابهم» (٦٠)

أضف إلى ذلك أن الرسول (ص) ابتاع بسبانيا بني قريظة خيلاً وسلاحاً من نجد، (٦٠) فكثرت أعداد الخيول في المدينة حتى بلغ عددها في جيش المدينة عند فتح مكة ما يقارب الألفي فرس، (٦٢) وبلغ ما استطاع أن يمد رجل واحد من المسلمين «هو الصحابي عثمان بن عفان» (٦٣) جيش تبوك، بثلاث ما كان يملكه ذلك الجيش الذي بلغ عشرة آلاف فرس (٦٤) الأمر الذي يبرهن على نمو عدد الخيول وكثرتها في المدينة بعد الهجرة.

وعدت الأغنام المادة الرئيسة لتموين الناس باللحوم والصوف، ومن الواضح أن أهل المدينة قد عملوا بتربيتها، وكانت تربي في منطقة اسمها الغابة، ففي غزوة ذي قرد جاء: قالت بنو حارثة من الانصار «يارسول الله ههنا مسارح ابلنا ومرعى غنمنا ومخرج نساننا يعنون موضع الغابة، فقال رسول الله (ص): من قطع شجرة فليغرس مكانها ودية، فغرس الغابة» (٦٥)

وفي غزوة بدر الاولى أغار كرز بن الفهري على سرح المدينة «أي على الابل والمواشي» (٦٦) وبمعرض الحديث عن أسر عمرو بن أبي سفيان وإطلاقه جاء «فينما هو محبوس بالمدينة عند رسول الله (ص) اذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني معاوية معتمراً ومعه مريه له، وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالنقيع» (٦٨)

وعاشت الأغنام في حمى الربذة، فقد «كان يرعى فيه أهل المدينة» (٦٩) على هذا حوت المدينة الأغنام، وكانت تربي في الغابة والنقيع والربذة، وقد أمدت السكان باللحم والصوف واللبن.

ولقد كانوا يتهدون الشياه، فالرسول (ص) عندما نزل الأنباء أهدى ابياء بن رضىة جزراً ومائة شاة.... ولقد ضحى رسول الله (ص) بالمدينة، وخرج بالناس الى المصلى، وذبح بيده شاتين وقيل شاة. (٦٩)

لم تكن الثروة الحيوانية نامية في المدينة قبل الاسلام فكما أسلفنا القول، كثيراً ما كانت تتعرض للغزو السلب والنهب من قبل القبائل المتنازعة، خاصة الأوس والخزرج، وبالمقابل لم نسمع عن سلب أو نهب بين القبائل المتعددة بعد الاسلام، لكن ما أوردته المصادر هو أنه عقب كل غزوة كانت هناك غنائم توزع على المقاتلين، من المسلمين، فتحسنت أحوالهم، وأصبح لهم ثروة بعد أن هجروا ديارهم وأقبلوا على المدينة صفر اليدين.

ومما يذكر أن رسول الله (ص) لما فتح خيبر، وصارت الأموال بين يديه لم يكن عنده من العمال ما يكفيه عمل الأرض، فدفعها إلى اليهود يعملون بها على نصف ما خرج منها... (٧٠)

وقامت في المدينة بعض الصناعات التي تعتمد على الانتاج الزراعي مثل صناعة الخمر من التمر، وكان معظمها في منطقة الحصون الخيرية، (٧١) واعتمد أكثرها على خليط من البسر والتمر، وبعضها على خليط من الزبيب والتمر، أو الرطب واليسر، (٧٢) وكانت تحفظ هذه الخمور في جرار، أطلق عليها اسم الحتممة، والمزفت، والدباء، والنقير. (٧٣) وقامت أيضاً على سعف النخل صناعة المكاتل والقفف، والنجارة من شجر الطرفاء، والاثل، وهو شجر كان يكثر في غابة يثرب. (٧٤)

واحتكر اليهود العمل في الحرف المالية، والصناعية، مستغلين من ناحية الطبيعة الاجتماعية لأهل المدينة من الأوس والخزرج، ومن ناحية أخرى لصلاتهم الطيبة مع قبيلة سليم، التي كانت تمتلك المصادر المعدنية كالذهب والفضة، (٧٥) والحديد، (٧٦) فعملوا بها، وربحوا ربحاً طيباً كما وربحوا من انتاجهم الادوات والمعدات والآلات الزراعية، وعملوا أيضاً بصناعة الدباغة وآلات الزراعة، وأدوات الصيد هذا وان عمل غيرهم من أهل المدينة بالحدادة (٧٧)، فقد كانت هذه الحرفة شبه حكر عليهم.

ففي غزوة خيبر، خرج اليهود «بمساحيهم ومكاتلهم» (٧٨) وفي غزوة الخندق استعار المسلمون من بنى قريظة آلات كثيرة من مساحي وكرازين، ومكاتل يحفرن بها الخندق» (٧٩)

ولقد غنم الرسول (ص) كل مالدى بنى النضير من سلاح، الحلقة والدروع (٨٠) وذلك بعدما حاصرهم طويلاً حتى نزلوا على الجلاء، على أن لهم ما أفلت من الأبل من الأمتعة والأموال الا الحلقة» (٨١)

كما غنم المسلمون عندما أجلوا بنى قينقاع عن المدينة كثيراً من الدروع والسيوف والقصي، في أطعمهم أيضاً آلة للصاغة (٨٢)، ففي قرية زهرة وحدها، وهي أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والساقلة، ثلثائة صائغ. (٨٣)

وكان في المدينة سوق لبني قينقاع اختص بالصياغة احتوى على الكثير من الحلي والمجوهرات، (٨٤) اعتادت النساء من أهل المدينة على غشيانه يشترين مايلزمهن، وقدم إليه الناس من حواضر الحجاز، وأهل البادية لشراء ماتطلبه نساؤهم وفتياتهم من مصاغ. ومن الطبيعي ألا تشذ المدينة عن حياة الحواضر الأخرى، خاصة وأن موقع يثرب على طريق القوافل كان يؤهلها للإسهام بالضرورة في نطاق الدائرة الحيوية من تجارة الشام المهمة، وفي ضوء ذلك أسهمت المدينة فيها بنصيب، سواء في المواد المنتجة محلياً، أم المستورد منها عبر ميناء الجار.

وفي الوقت الذي احترف فيه السكان الزراعة، وذلك لخصوبة الأرض وتوفر الامكانيات المطلوبة، فمن غير المستبعد ألا يكونوا قد ضربوا بسهم وافر في النشاط التجاري في الحجاز، وفي الرحلات التجارية الخارجية ومهما يكن من حال، احترف اليهود التجارة إلى جانب الصناعة، وتحدثت المصادر عن رجل يهودي اسمه اذينة، كان بارعاً في التجارة، أغضب حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف فألّب عليه فتياناً من قريش، تخلصوا من منافسته بقتله. (٨٥)

ومن المؤكد أن قوافل مكة كانت تمر بالمدينة في رحلاتها التجارية (٨٦) وأن أهلها كانوا يتعاملون مع هذه القوافل المكية، ولقد وصفت خير، وسوقهم الشهير «نطاة خير» بأنها واحدة من أهم مراكز التجارة، واشتهرت أسواقها الموسمية، ليس في بلاد الحجاز فحسب بل في جزيرة العرب أجمع (٨٧)

فقد صنفها ابن حبيب ضمن أسواق العرب المشهورة، كات مبايعتهم فيها (٨٨)، وكانت مقر اليهود في الحجاز قبل الاسلام (٨٩)، وقد أعدها اليهود لتكون واحدة من أهم المحطات التجارية للقوافل التي كانت تجوب شبه الجزيرة العربية من سوق إلى سوق (٩٠)، وكان لليهود علاقات تجارية واسعة خارج منطقة خير، وأسهموا بدور هام في التجارة الخارجية لشبه الجزيرة، وكانت التجارة الدولية من الأعمال التي برعوا فيها وكان التاجر اليهودي الجوال معروفاً في كل بلدة ومدينة ومعروفاً في كل سوق (٩١).

وكانت التجارة الداخلية نشيطة في يثرب، وسلف أن ذكرنا أنه كان بها عدة أسواق كسوق بني قينقاع لبيع الحلي، ثم سوق أخرى بزباله وكان بالصفاصف بالعصبة سوق، وسوق قام في موضع زقاق ابن حيين، كان يقال له مزاحم (٩٢). وسوق قرب البقيع عرفت ببقيع الخيل وسوق الطحاء (٩٣)، ولانعدام الامن والرقابة المنظمة «كان الراكب ينزل بسوق المدينة فيضع رحله ثم يطوف بالسوق، ورحله بعينه يبصره ولا يغيب عنه شيء» (٩٤)

ويبدو أيضاً أنه لم تكن هناك رقابة مفروضة على البيع والشراء وتنظيم التعامل في هذه الأسواق فالغش والمخادعة وسوى ذلك كانت من الأمور المعتادة، فقد كانوا يبلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها أو يخفون الرديء داخل الطيب، ذكر عن النبي (ص) أنه «مر برجل يبيع طعاماً، فسأله كيف تبيع؟ فأخبره فأوحى إليه أن أدخل يدك فيه، فأدخل يده فإذا هو مبلول، فقال رسول الله (ص) «ليس منا من غش» (٩٥)

كما كانوا يرفعون الأسعار، ويحتكرون البضائع، فعندما مر الرسول (ص) برجل يبيع طعاماً بسعر أعلى من سعر السوق... قال «ابشروا فان الجالب الى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، وان المحتكر كالملحد في كتاب الله» (٩٦)

وكانوا يتصرفون في مزروعاتهم ببيعها قبل أن يبدو صلاحها كما سلف ذكره. وتعامل أهل المدينة بالربا: ممارسة العرب واليهود على السواء، فقد ذكرت الروايات أن أوصيحه ابن الجلاح أحد زعماء الاوس، كان يتعامل بالربا مع قومه من الاوس، كاد ان يحيط بأموالهم (٩٧). وقد نزل القرآن ينذر باليهود ويلومهم لأخذهم الربا، وقد نهوا عنه، وعن أكلهم أموال الناس بالباطل (٩٨).

وعلى الرغم من وجود هذه التجارة في يثرب، إلا أنها لم تستطع منافسة مكة بوجه عام في الفترة التي سبقت الهجرة، وقد تبدل الوضع بعد هجرة النبي إليها، فنقل المهاجرون خبرتهم الى المدينة، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر كان تاجراً في الجاهلية (٩٩). وبعد الهجرة أخذوا يتاجرون من المدينة مع بلاد الشام، وإذا نظرنا إلى غزوات الرسول (ص) كغزوة دومة الجندل وتبوك وغيرها وجدنا أنها كانت من بعض الجوانب لحماية الطرق التجارية أو لاحتكارها لصالح المدنيين (١٠٠)، وقد عدّ انتصار المسلمين في بدر حلقة أولى في الحصار الاقتصادي لمكة، هدد قوافل قريش، وشيئاً فشيئاً تبوأَت المدينة مركز مكة التي تطوقت في حصار اقتصادي هدد مصالحها الحيوية، ولم يكن الأمر مجرد حصار تجاري ضد الفئات القرشية الميسورة، ولكنه انعكس على مختلف فئاتها الاجتماعية سواء في ارتزاقها اليومي. أو في تموينها بالمواد الغذائية الاساسية، فقد كان هذا الطريق الجزء الأهم منها لاسيما الحبوب التي كانت تأتيها من بلاد الشام، وأخذ الأنصار والمهاجرين يتاجرون معاً في الأسواق، وظهرت النتائج الكبرى لهذه التجارة بعد فتح مكة، ودخول القبائل في الاسلام.

المصادر والمراجع:

- ١— ابن الاثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري؛ اسد الغابة في تمييز الصحابة. منشورات المكتبة الاسلامية.
- ٢— الاصبهاني، (أبي الفرج علي بن الحسين)
الاجاني، مصور عن طبعة دار الكتب
- ٣— الافغاني، (سعيد)
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام— دار الفكر ط ٣
- ٤— امرؤ القيس،
ديوان امرؤ القيس. دار صادر— بيروت
- ٥— الانصاري، (عبد القاوس)
آثار المدينة المنورة— مطبعة الترقى دمشق ١٩٣٥ م.
- ٦— البخاري، (أبي عبد الله محمد بن اسماعيل).
صحيح البخاري. مطبعة الهندي ج ٢— ج ٣
- ٧— البلاذري، (أحمد بن يحيى بن جابر)
أنساب الأشراف— تحقيق محمد حميد الله — دار المعارف مصر.
- ٨— البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان— دار الكتب العلمية— بيروت ١٩٧٨ .
- ٩— ابن حبيب، (ابي جعفر محمد)
المحبر، مكتبة المثني— بغداد ١٩٤٢
- ١٠— حسان بن ثابت
ديوان حسان
- ١١— الحموي، (ياقوت)
معجم البلدان — دار احياء التراث العربي— بيروت ١٩٧٩
- ١٢— ابن حوقل، (ابي القاسم النصيبي)
صورة الأرض. مكتبة الحياة— بيروت ١٩٧٩
- ١٣— ابن خرداذبة، (ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله)
المسالك والممالك — دار المدينة. مطبعة بريل ١٨٨٩ م
- ١٤ — دائرة المعارف الاسلامية، أصدرها بالعربية أحمد الشتاوي و ابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس — مراجعة. محمد مهدي علام.
- ١٥ — سالم، (عبد العزيز).
تاريخ العرب في عصر الجاهلية— دار النهضة العربية ١٩٧١ م

- ١٦—سلام، (شافعي محمود سلام)
النشاط التجاري في خيبر — منشأة المعارف — الاسكندرية
- ١٧—السمهودي، (نور الدين علي بن أحمد)
وفاء الوفا — دار احياء التراث العربي ط ٤ ١٩٨٤ م
- ١٨—السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن)
تاريخ الخلفاء — تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم — دار الفكر العربي مصر.
- ١٩—شريف، (أحمد ابراهيم)
مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول — القاهرة ١٩٦٧
- ٢٠—عاقل وخماش، (نبه ونجدة)
تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى — دار الكتاب — دمشق ط ٣
- ٢١—علي، (جواد)
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٦ .
- ٢٢—الكتاب المقدس
القرآن الكريم
- ٢٣—لوبون (غوستاف)
حصارة العرب — ترجمة عادل زعير — مطبعة الحلبي ١٩٦٩ م
- ٢٤—ابن منظور، (ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)
لسان العرب — دار صادر — بيروت.
- ٢٥—المقريري، (تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر)
امتناع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع — تحقيق محمد شاکر — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٤١ .
- ٢٦—الواقدي، (محمد بن عمر)
المغازي النبوية — تحقق مارسدن جونز — مؤسسة الاعلمي للمطبوعات — بيروت
- ٢٧—ابن هشام، (ابو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري؛ السيرة النبوية —
تحقيق مصطفى السقا وغيره — دار احياء التراث — بيروت.
- ٢٨—الهمداني، (ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب)
صفة جزيرة العرب — تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي — دار اليمامة — الرياض.
- ٢٩—اليعقوبي، (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)
تاريخ اليعقوبي — دار صادر — بيروت.

الحواشي:

- ١— ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٢— ياقوت، معجم البلدان مادة جار.
- ٣— ياقوت معجم البلدان مادة جار.
- ٤— ابن حوقل، صورة الارض ص ٣٩
- ٥— ياقوت، معجم البلدان مادة أحد، ومادة مديئة يثرب.
- ٦— ياقوت، معجم البلدان مادة غير.
- ٧— ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٨— السهمودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ ومابعدھا.
- ٩— سهمودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ .
- ١٠— ياقوت، معجم البلدان مادة بثر.
- ١١— ياقوت، معجم البلدان مادة عقيق.
- ١٢— السهمودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧١ ومابعدھا، الانصاري، آثار المدينة ص ١٤٠—١٥١—١٥٥. سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٣٨٧.
- ١٣— ياقوت، معجم البلدان مادة حرة.
- ١٤— ياقوت، معجم البلدان مادة حرة.
- ١٥— سهمودي، وفاء الوفا ١ / ٣٩ .
- ١٦— البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٦٦٧ .
- والجُحفة، كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام ان لم يَمروا على المدينة فان مروا بالمدينة فيمقاتهم ذو الخليفة، وكان اسمها مهيعة، وانما الجحفة لان السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الاعوام وهي الآن خواب. ياقوت، معجم البلدان مادة الجحفة.
- ١٧— ابن منظور، لسان العرب مادة قيل، سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية— ص ٣٩٢.
- ١٨— السهمودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٤٢ ومابعد.
- ١٩— البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨٣٣، البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤ السهمودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧٩ .
- ٢٠— البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤ .
- ٢١— ياقوت، معجم البلدان مادة يثرب.
- ٢٢— الاصبهاني، الاغاني ١٥ / ٤٨ — الافغاني، اسواق ص ٦٢ .
- ٢٣— ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٦ .

- ٢٤—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣١، السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ .
- ٢٥—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٠١ — ٢٠٢ قارن البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٣
- ٢٦—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٥ .
- ٢٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ .
- ٢٨—اليقوت، البلدان ص ٣١٣، ياقوت معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٢٩—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ وما بعد، شريف، مكة والمدينة ٣٥٧ .
- ٣٠—البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨١٧ وما بعد.
- ٣١—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٣٢—ديوان امرؤ القيس ص ٦٥، ابن منظور، لسان العرب مادة جرم.
- ٣٣—الواقدي، المغازي ١ / ٣٧٢ .
- ٣٤—شريف، مكة والمدينة ص ٣٥٧ .
- ٣٥—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٢٩ .
- ٣٦—سمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٢٣٨ وينظر ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب .
- ٣٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ١٤٤ .
- ٣٨—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٣٩—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٧ .
- ٤٠—ياقوت، معجم البلدان مادة الاطم والاطم والاجم بمعنى واحد والجمع أطام وأجام وهي الحصون، واكثر ما يسمى بهذا الاسم حصون المدينة.
- ٤١—البخاري/ صحيح البخاري ٢ / ٨١٩ .
- ٤٢—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٠ .
- ٤٣—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٥ .
- ٤٤—البخاري، صحيح ٢ / ٧٦٣، الافغاني أسواق ٥٠—٥١ .
- المزانية، وهي بيع الثمر بالتمر، وبيع الزبيب بالكرم، وبيع العرايا وهي اشتراء الثمر بالتمر في رؤوس النخل.
- المحاقل، بيع الحنطة في سنبلها بحنطة صافية.
- ٤٥—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٥ .
- ٤٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٥٠ وما بعد، ٢ / ٢٥٧ وما بعد.
- ٤٧—المقرئزي، امتاع الاسماع ١ / ٢٤٧ .
- ٤٨—السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٤٧ .

- ٤٩—ديوان حسان بن ثابت ٢٢٢ .
- ٥٠—ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٥٨ .
- ٥١—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٩٤ ، واللقاح «الابل الحوامل ذوات الالبان» .
- ٥٢—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
- ٥٣—ابن هشام السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
- ٥٤—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٨٣ .
- ٥٥—الواقدي، مغازي الواقدي ٣ / ٩٤٣ .
- ٥٦—السيوطي، تاريخ الخلفاء ١٦٧ .
- ٥٧—ابن هشام، السيرة النبوية. كانت خيول المسلمين يوم بدر فرسين بينها كانت خيول أهل مكة مائة فرس .
- ٥٨—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٤ .
- ٥٩—سورة آل عمران آية ١٤ ، الانفال، ٦١ ، سورة النحل، ٨ ، سورة الحشر، ٦ ، سورة الاسراء، ٦٤ .
- ٦٠—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٨٥ .
- ٦١—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ ، الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٢٣ .
- ٦٢—الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٨٠٠ .
- ٦٣—الواقدي ، مغازي الواقدي ٣ / ٩٩١ .
- ٦٤—الواقدي، مغازي الواقدي ٣ / ١٠٠٢ .
- ٦٥—البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٣ .
- ٦٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٥١ .
- ٦٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٣٠٥ .
- ٦٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٥٩٢ .
- ٦٩—الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٧٧ ، ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٢٢ .
- ٧٠—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٩ .
- ٧١—سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٧ .
- ٧٢—جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٧ / ٥٤٠ .
- ٧٣—ابن منظور، لسان العرب مادة حتم ومادة زفت ومادة دبي ومادة نقر .
- ٧٤—شريف، مكة والمدينة ص ٣٧٦ ، سالم ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٤٠٥ .
- ٧٥—الهمداني، الصفة ص ٢٩٩ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٢ / ١٤٤ .
- ٧٦—ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .

- ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص ١٣١ .
- ٧٧— ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .
- ٧٨— ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٣٤٣ .
- ٧٩— الواقدي، مغازي ٢ / ٤٤٥ . والمساحي جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد، وكرازين جمع كرزون وهو الفأس . وكاتل جمع مكتل وهو الزنبيل الكبير . الواقدي ، مغازي الواقدي ٢ / ٤٤٥ حاشية .
- ٨٠— البلاذري، فتوح البلدان ٣١ .
- ٨١— الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ٣٧٣ .
- ٨٢— الواقدي مغازي الواقدي ١ / ١٧٩ .
- ٨٣— السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٣٠ .
- ٨٤— الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٧٦ .
- ٨٥— البلاذري، أنساب الاشراف ١ / ٧٣ .
- ٨٦— ابن هشام، السيرة ٢ / ٢٥٧ .
- ٨٧— الافغاني، أسواق ٣٥٦ .
- ٨٨— ابن حبيب، المحبر ١٦٩ .
- ٨٩— لوبون، حضارة العرب ١٠٧ .
- ٩٠— الافغاني، أسواق ٣٥٦ .
- ٩١— سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٢ .
- ٩٢— سمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٧ .
- ٩٣— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٤ .
- ٩٤— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٩ .
- ٩٥— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٦ .
- ٩٦— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٧ .
- ٩٧— الاصبهاني، الاغاني ١٥ / ٤٨ .
- ٩٨— سورة النساء، ١٦٠—١٦١ .
- ٩٩— الافغاني، أسواق ص ٣١ .
- ١٠٠— عاقل وخماش، تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى ص ٦٣—٧١ .
- ١٠١— البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٨ . قارن السمهودي ، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٨ .